

منير الطيباوي | Mounir Tibaoui*

مراجعة كتاب المشكلان الأساسيان في نظرية المعرفة لكارل بوبر

Book Review
The Two Fundamental Problems of the Theory of Knowledge
by Karl Popper

عنوان الكتاب في لغته:

The Two Fundamental Problems of the Theory of Knowledge.

المؤلف:

كارل بوبر.

ترجمة:

نجيب الحصادي.

الناشر:

جداول للنشر والترجمة والتوزيع، بيروت.

سنة النشر:

2018.

عدد الصفحات:

606 صفحات.

* أستاذ المنطق وفلسفة اللغة وفلسفة العلوم بجامعة تونس-المنار وجامعة تونس.

Professor of Logic, Philosophy of Language and Philosophy of Science, University of Tunis-Manar and University of Tunis.

التان تشغلان بوبر هما مشكلة الاستقرار ومشكلة رسم الحدود Demarcation. يُردُّ السؤال الأول إلى السؤال المتعلق بالتثبت من صلاحية Validity المنطوقات الكلية التي تختص بها العلوم الخبرية Empirical. أما المشكلة الثانية وإليها تُردُّ المشكلة الأولى، فتتمثل في ضبط معيار دقيق وكوني يُمكن من التمييز، على نحو واضح، بين المنطوقات العلمية، أي منطوقات العلوم الخبرية، والمنطوقات الميتافيزيقية. ويفترض هذان السؤالان تمييزاً مبدئياً جوهرياً أقامه كانط في مجمل فلسفته النقدية بين سؤال الواقع Quid facti وسؤال الوجود Quid juris. فهذان السؤالان الأساسيان في نظرية المعرفة إنما هما سؤالان في التسويغ Justification أو الصلاحية؛ أي في المشروعية Legitimacy، وليسا سؤالين ذوي طابع نفسي أو تاريخي - تكويني، بمعنى أنهما لا يتعلقان بنشأة المعارف، وبذلك فإن بوبر يواصل تقليد النزعة المناهضة للفسانية Antipsychologism التي هي موضوع ثابتة في الفلسفة التحليلية في ثلاثينيات القرن المنقضي منذ غوتلوب فريجه وجورج مور، مروراً ببرتراند رسل، ووصولاً إلى لودفيغ فتنغشتاين.

وفي هذا السياق، أُعبر عن اختلافي مع نجيب الحصادي في ترجمة مصطلح «Demarcation» الذي ترجمه بـ «تأريف»؛ ذلك أنني أفضل ترجمته بـ «رسم الحدود»، على الرغم من استجابة ترجمة الحصادي إلى أمرين محمودين؛ أحدهما الاقتصاد في اللفظ، وثانيهما تأصيل المصطلح في اللغة العربية. ويعود قرار الترجمة الذي اتخذته إلى الروح الكانطية البحتة لمصطلح «Demarcation» التي تتجلى بوضوح فيما يلي:

صدرت عن دار جداول في بيروت (2018) ترجمة لمؤلف كارل بوبر *Die beiden Grundprobleme der Erkenntnistheorie* (1979)، وهي ترجمة نهض لها نجيب الحصادي كما نهض لترجمة مؤلفات كثيرة أخرى في فلسفة العلم. ويتبوأ هذا الكتاب مكانة بالغة الأهمية في فلسفة العلم عند بوبر؛ وذلك لاعتبارين أساسيين: أولهما أن هذا المؤلف، الذي هو عبارة عن مسودات دونها بوبر خلال الفترة 1930-1933، يهيب للكتاب العمدة *Logik der Forschung* (1934) الذي بلور فيه بوبر، على نحو نسقي، فلسفته في العلم، وثانيهما أن لهذا المؤلف قيمة بيداغوجية كبرى؛ بالنظر إلى التفاصيل الكثيرة التي يشتمل عليها بخصوص الجانبين التأسيسي والسجالي من فلسفة العلم البوبرية. وليس الغرض من هذه القراءة لمؤلف بوبر رصد مواطن التواشج والتخارج بينه وبين الكتاب العمدة لعام 1934، رغم اعتقادنا أن رصد هذه المواطن قد يُشكّل درباً مهماً لعرض ما تضمنه من أطاريح وما يستدعيه ذلك، من الناحية السجالية، من دحض لأطاريح إبستيمولوجية وفلسفية أخرى؛ لعل أهمها تلك التي يدافع عنها أنصار النزعة الاستقرائية Inductivism وشيعة المواضيعية Conventionalism.

ينبغي لنا أن نلاحظ بادئ الأمر أن المشكلان الأساسيان في نظرية المعرفة هو كتاب في ما صار يُعرف منذ كارناب بمنطق العلم، ما يعني، سلبياً، أنه لا يتعلق بتطور المعرفة العلمية بالمعنى الدارويني الذي تضمّن كتاب المعرفة الموضوعية *Objective Knowledge* (1972) لاحقاً، ولا هو يخص البعد الدياكروني التاريخي للمعرفة بالمعنى الذي نجده في فلسفة العلم التي يمارسها توماس كون وأشباعه. والمشكلتان الأساسيتان

• يتحدث بوبر نفسه عن مشكلة رسم الحدود بوصفه عين «سؤال كانط حول حدود المعرفة العلمية»⁽¹⁾.

• هذا السؤال ترنسندنتالي Transcendental بالمعنى الكانطي؛ على جهة أنه سؤال النقد، ويتعلق بتسوية المنطوقات. ويُؤكّد بوبر أنه «في العمل الراهن أيضًا، تمّ استخدام مثل هذا المنهج الترנסندنتالي مرارًا، دون ذكر اسمه»⁽²⁾.

• إنّ المنهج الترנסندنتالي هو الذي يفرض نقد كلّ أشكال النفسانية Psychologism في تصور المعرفة على وجه العموم وتصور أساسها على وجه الخصوص. وهذه النفسانية تتجلى على نحو خاص في تصور الخبيرين المنطقيين من أمثال رودولف كارناب Rudolf Carnap وأوتو نويراث Otto Neurath للمنطوقات البروتوكولية Protocol statements. فهذه المنطوقات التي هي في نظر أصحابها جملٌ بسيطة تعبّر عن معطيات التجربة وتشكّل أساس العلوم الخبرية، لا تعدو أن تكون، من منظور بوبر، ترجمة منطوقات متعلّقة بالإدراك - ومن ثمّ فهي نفسية - إلى تقارير متعلّقة بالإدراك قام بها أشخاص فيزيولوجيون؛ وهكذا فإنها «إعادة بناء فيزيقانية Physicalist للمذهب النفساني Psychologistic الخاص بالقاعدة الإدراكية للعلوم الخبرية»⁽³⁾.

• وعلى هذا النحو يؤسس الخبيرون المنطقيون لحلقة فيينا العلم على قاعدة أنانية Solipsistic، ما يعني أن هذه القاعدة تُعوّزها، في نظر بوبر،

الموضوعية أو هي لا تخضع لرقابة بيذاقية. إنّ أشكال الوضعية ونموذجها الخبرية المنطقية، تحسّر، في ما يسمّيه بوبر «سياقات التسوية» Contexts of Justification، عناصر نفسية ينبغي أن تقوم عليها المنطوقات الإدراكية. ويترح بوبر منهجًا يسمّيه «منهج كانط - فريز» - Kant-Fries Method، ويعتبره كفيلاً بتجاوز أشكال النفسانية من خلال إرساء تمييز منهجي مبدئي بين القضايا التي تعود إلى عملية استنباط منطقية صرف والمنطوقات الأساسية Basic Statments التي تعبّر عن معطيات التجربة؛ وبذلك فإنّ نظرية المعرفة التي يروم بوبر إرساءها تربط بين النزعة الاستنباطية والنزعة الاستقرائية. بخصوص الأولى، يتحدّث بوبر عن «نزعة استنباطية متسقة» Consistent Deductivism⁽⁴⁾ مفادها أنّ الاستقراء هو ضرب من الخرافة، وأنّ التعميم خطأ، وأنّ «الاستدلالات المشروعة الوحيدة التي تسير في اتجاه استقرائي هي استدلالات مودس تولنز Modus Tollens الاستنباطية»⁽⁵⁾. وتنتصب هذه النزعة الاستنباطية على طرفي نقيض من العقلانية الكلاسيكية لديكارت واسبينوزا التي تقوم على استنباط ذي نسيج هندسي (إقليدي) صرف. أما الخبرية التي تتضمنها نظرية المعرفة البوبرية، فتعني أنّ التجربة، من دون سواها، هي الكفيلة بالحسم في شأن صدق أي منطوق يتعلّق بالواقع أو كذبه. إنّنا هنا إزاء ما يسمّيه بوبر «تصور استنباطي - خبري»⁽⁶⁾. ويفرض هذا المذهب أن تكون القوانين العلمية، التي هي عبارة عن منطوقات كلية، قابلة للتكذيب

(1) كارل بوبر، المشكّلان الأساسيان في نظرية المعرفة، ترجمة نجيب الحضّادي (بيروت: جداول للنشر والترجمة والتوزيع، 2018)، ص 56، 539. هذا التوصيف لمشكلة رسم الحدود يتردد في جميع مؤلفات بوبر اللاحقة.

(2) المرجع نفسه، ص 115.

(3) المرجع نفسه، ص 542 [الترجمة معدّلة].

(4) المرجع نفسه، ص 537. يسم بوبر موقفه، أيضًا، بأنه «نزعة استنباطية راديكالية»، المرجع نفسه، ص 60.

(5) المرجع نفسه، ص 537.

(6) المرجع نفسه، ص 61 [الترجمة معدّلة].

وعلى نقده الثابت لما يعتبره نزعة استقرائية عند
الخبريين المنطقيين لأفراد حلقة فيينا من ناحية
أخرى؛ ما يعني أن هذا النقد الموجه إلى بوبر
سوف يكون داخليًا، إذ هو لا يتناول نقدًا تفرضه
ممارسة أخرى لفلسفة العلم على غرار تلك التي
نجدها عند توماس كون وفلاسفة العلم الكونيين
Kuhnians، ومفادها أن بوبر إنما يهتم، شأنه
شأن الخبريين المنطقيين، بالجوانب السانكرونية
في نشأة النظريات العلمية مُغفلًا دور السياقات
التاريخية والثقافية والمؤسسية في نشأة
البرادايما العلمية وتطورها.

يمكن رد هذين الاحترازين إلى ما يلي:

• يعتبر بوبر أن مشكلة رسم الحدود بين ما هو
علمي وما هو غير علمي هي مشكلة كانط⁽⁹⁾
بحسب العبارات التي يستعملها في منطق الكشف
العلمي (1934) في مقابل مشكلة الاستقراء التي
هي، في نظره، مشكلة هيوم. لن نتناولها هنا
سوء فهم بوبر لمفهوم مركزي عند كانط هو مفهوم
«الترنسدنتالي» Transcendental الذي يميز
نمط مقاربتة للمشكلة الأساسية التي تشغله في
نقد العقل المحض (1781)، بل سنكتفي بالإشارة
إلى أن هذه المشكلة التي تشغل كانط في مؤلفه
ليست التمييز بين العلم والميتافيزيقا، وإنما
البحث في شروط إمكان وضع الميتافيزيقا على
الدرب الملكي للعلم من خلال طرح «المشكلة
الأساسية للعقل المحض»⁽¹⁰⁾: كيف تكون أحكام
تأليفية قبلية ممكنة، والميتافيزيقا التي يريد لها
كانط أن تكون علمًا لا تتوفر على هذه الأحكام؛

Falsification، لا للتحقق Verification، كما
يرى لودفيغ فتغنشتاين والخبريون المنطقيون
لحلقة فيينا. فمبدأ التحقق الذي ورثوه عن
فتغنشتاين مثل موضوع نقد لاذع من جانب
بوبر في مجمل مؤلفاته حتى في صيغته التي ما
انفك كارناب يطوّرها في السنوات التي تلت نشر
كتابه العمدة *Der logische Aufbau der Welt* (1928).
إن إمكانية التأكيد Falsifiability هي عين معيار رسم الحدود بين ما هو علمي
وما هو غير علمي. وتعدّ فرضية (أو نظرية)
قابلية التأكيد أو الدحض، على نحو خبري،
إذا توافرت مجموعة من المنطوقات الخاصة
بالملاحظة أو المنطوقات الاختبارية Test
statements يدحض صدقها تلك الفرضية أو
النظرية أو يُثبت كذبها. وبهذا المعنى يكون مبدأ
قابلية التأكيد في علاقة تناظر Asymmetry مع
مبدأ قابلية التحقق Verifiability؛ من حيث إن
المنطوقات الاختبارية تصلح لتكذيب النظريات
الكلية، لا لتسويتها⁽⁷⁾. ويؤدّي الجمع بين النزعة
الاستنباطية والخبرية إلى اعتبار المنطوقات
الكلية، أي القوانين الطبيعية فرضيات وقتية أو،
بحسب عبارات فيلسوف كانطي آخر هو هانس
فيهنغار Hans Vaihinger، وهي عبارات يتبناها
بوبر، «تخييلات حقيقية»⁽⁸⁾ Genuine Fictions؛
على جهة أنها ستُعدّ صادقة ما لم يتم تكذيبها.

في نهاية هذه القراءة النقدية لكتاب المشكلان
الأساسيان، أصوغ في اقتضاب شديد يفرضه
ضيق المجال، احترازين يدوران على فهمه
لمشكلة رسم الحدود عند كانط من ناحية،

(9) Karl Popper, *The Logic of Scientific Discovery* (London and New York: Routledge, 2002), p. 11.

(10) Immanuel Kant, *Critique of Pure Reason*, Paul Guyer & Allen W. Wood (eds./trans.), (Cambridge: Cambridge University Press, 1998), p. 146.

(7) انظر النقد الذي يوجهه بوبر إلى معيار المعنى عند فتغنشتاين والوضعية المنطقية: المرجع نفسه، ص 365-412.

(8) المرجع نفسه، ص 327 [الترجمة معدّلة، والتشديد من عند بوبر].

ومن ثمّ فهي لا تتوفر على صفة العلمية التي تُعدّ الرياضيات والفيزياء نموذجًا لها؟

• ولكن تجدر الإشارة إلى أن القابلية للخطأ أو القابلية للتخطيء Fabillism التي تقر أن كل النظريات، بما فيها النظريات العلمية، لا تعدو أن تكون مجرد فرضيات وتخمينات Conjectures، ولا تُعدّ يقينية لانعدام كل شكل تسويغ لها قبلًا كان أو استقرائيًا، إنما هي موقف يُشكّل تطورًا حقيقيًا في تصور المعرفة مقارنةً بأشكال التأسيسانية Foundationalism الكلاسيكية، سواء كانت ذات نسيج عقلائي أو ذات توجه خبري. فلا العقل عند ديكارت وليبنتز، ولا الانطباعات عند هيوم، ولا المنطوقات البروتوكولية عند الخبيرين المنطقيين، بوسعها أن توفر أساسًا ثابتًا و يقينيًا للنظريات العلمية. ولا تنفك خطئية بوبر عن عقلانيته النقدية Critical rationalism. فكل النظريات العلمية بوصفها تخمينات تصدر بدورها عن مشكلات بالمعنى العلمي إنما تخضع إلى نقد دائم؛ أي وفق تكذيبية بوبر، إلى اختبارات خبرية نسقية صارمة، الغرض منها تخليص النظريات من الخطأ؛ ومن ثم فهي تقود إلى جملة من النظريات وقع تعزيزها

Corroborated.

حري بنا أن نلاحظ، في هذا السياق، أن أطروحة التجربة الحاسمة Experimentum crucis يرفضها رفضًا كاملاً أحد الخبيرين المنطقيين وأكثرهم طرفة، أوتو نويراث، وهو ما يفسر نقده، بوصفه أحد ورثة النزعة الموضوعية الفرنسية عند بيار دوهام خاصة، معيار التحقق عند أفراد حلقة فيينا ومعيار التكذيب عند بوبر على حد سواء. ففي مقاله «Pseudorationalismus der Falsifikation» (1935)، يدافع نويراث عن أطروحة أساسية مفادها أن معيار التحقق عند الخبيرين المنطقيين ومعيار التكذيب عند بوبر

• يُشيد بوبر نزعته الاستنباطية - الخبرية ومعيار رسم الحدود لديه، أعني إمكانية التكذيب، من الناحية السجالية، على أنقاض تصور الخبيرين المنطقيين لمعيار التحقق. لن نتوقف هنا عند الصعوبات المنهجية التي يواجهها معيار رسم الحدود ذاته، وهي صعوبات لم يُثرها فلاسفة علم يعلنون معارضتهم، على نحو صريح، لتكذيبية بوبر؛ من أمثال وسلاي سالمون W. C. Salmon، وهربرت فيغل

والنظريات العلمية الأخرى وهو، من ناحية ثانية، مسألة اتساق مع السياقات التاريخية والاجتماعية والثقافية لإنتاج المعرفة. ويُعبّر مفهوم «جمهورية العلماء» Republic of Scholars عند نويراث الذي يُيسّر، على نحو خاص، بمفهوم «الجماعة العلمية» Scientific Community الشهير عند توماس كون عن انخراط النظريات العلمية واللغة التي تعبر عنها في التاريخ. يعني ذلك أن نويراث ينتصر لتصور اتساق Coherentist للحقيقة ويناهض كل تصور للحقيقة كمطابقة Correspondence بين المنطوقات والوقائع، وهو تصور يشترك فيه بوبر مع الخبريين المنطقيين لثلاثينيات القرن المنقضي.

إن ثراء نص بوبر، المشكلان الأساسيان في نظرية المعرفة، من الناحيتين التأسيسية والسجالية، وكذلك من حيث النقاشات الإبستمولوجية التي أثارها لاحقاً، المتعلقة خاصة بطبيعة المعقولة العلمية، تجعل من هذا الكتاب نصاً جديراً بالدراسة في حد ذاته، ينفي عنه إمكانية اعتباره مجرد مسوّد تمهيدية لمؤلف بوبر الأشهر ذي الأهمية الكبيرة، من دون ريب، أعني منطوق الكشف العلمي.

إنما يُعبّران، على اختلافهما، عن «روح فكر لابلاس»⁽¹¹⁾ Laplace's spirit الذي تحدوه رغبة لا تكلّ في البحث عن الدقة، وهذا البحث مطلب يوتوبي Utopist، وهو يصدر عما يسميه بوبر «عقلانية زائفة» Pseudo-rationalism تكافئ، في نظره، الوثوقية⁽¹²⁾. ليست التجربة أو منطوقات الملاحظة حاسمة في التثبت من صدق منطوق علمي ما أو نظرية علمية مخصوصة، وإنما يعود ذلك إلى قرارات تتخذها جماعة علمية في فترة محددة من تاريخ تخصص علمي معين. يدافع نويراث عما صار يُعرف في فلسفة العلوم بأطروحة دوهام - كواين أو الكلائية Holism التي تقضي بارتباط صدق المنطوقات العلمية بالسياق الذي ينبغي أن يُفهم، عند نويراث، بالمعنيين السانكروني (أو السكوني) والدياكروني (أو التاريخي). فصدق المنطوق العلمي هو، من ناحية أولى، مسألة اتساق مع المنطوقات

(11) Otto Neurath, «Pseudorationalism of Falsification» in: O. Neurath, *Philosophical Papers 1913-1946*, R.S. Cohen & M. Neurath (eds.), (Dordrecht: Reidel Publishing Company, 1983), p. 121.

(12) لمزيد من التفاصيل بخصوص أطروحة نويراث هذه، انظر: Ibid., p.121-131.

References

بوبر، كارل. المشكلان الأساسيان في نظرية المعرفة. ترجمة نجيب الحصادي. بيروت: جداول للنشر والترجمة والتوزيع، 2018.

الأجنبية

Neurath, Otto. *Philosophical Papers 1913-1946*. R.S. Cohen & M. Neurath. (eds.). Dordrecht: Reidel Publishing Company, 1983.

Popper, Karl. *The Logic of Scientific Discovery*. London and New York: Routledge, 2002.

Kant, Immanuel. *Critique of Pure Reason*, Paul Guyer & Allen W. Wood (eds./trans.). Cambridge: Cambridge University Press, 1998.

المراجع

العربية